تقديم :

تتكرر إذْ في كثير من النصوص الأدبية نثراً كانت أو شعراً، ولا تكاد تخلو فقرة في كلام عربي من هذه الأداة.

ومع كثرة الاستعمال نجد أن معانيها تحتاج إلى تحديد، لأنه قد تصعب التفرقة بين هذه المعاني لاختلاطها بعضها ببعض. ومن أجل ذلك كانت هذه الدراسة، لإلقاء الضوء الكاشف على معاني هذه الأداة لتحديد الدّلالة، وتوضيح القصد، و بيان الغرض.

و يبدو أن معاني الأدوات الأسلوبيّة، وصعوبة رسم الخطوط الدقيقة بين معنى ومعنًى، و بين أسلوب وأسلوب هي التي حملت رجال اللغة والنحو على بسط الحديث عنها لكشف معانيها، وتحديد دلالتها.

وعلى الرغم من أنه لايخلو كتاب نحويّ أو لغويّ من هذه الأدوات منذ أن ألّف سيبو يه كتابه فإن بعض النحو يين أفردوا لهذه الأدوات كتباً مستقّلة، نذكر منها :

أ ــ كتاب : «الأُزهيّة في علم الحروف» لعليّ بن محمد النحويّ الهرويّ المتوفى عام ٤١٥هـ .

ب ــ كتاب : «رصف المباني في شرح حروف المعاني» لأحمد بن عبدالقادر المالقيّ المتوفى عام ٧٠٢هـ .

حـ ــ كتاب : «الجنى الدّاني» في حروف المعاني» للحسن بن قاسم المراديّ المتوفى عام ٧٤٩هـ .

د ــ كتاب : «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» لجمال الدين بن هشام الأنصاري المتوفى عام ٧٦١هـ .

أمّا الهرويّ صاحب: «الأزهية» فإنه يذكر في مقدّمة كتابه : أنه جمع هذه الأدوات منفصلة عن أبواب النحو في كتاب مستقل من أجل أن تستوعب معانيها، يقول :

«سألتني ــ أيدك الله ــ أن أجمع لك أبواباً من النحو قد ذكرناها متفرّقة في كتابنا المّلقب بالذخائر، ليسهل عليك حفظها وقراءتها، وقد فعلت ذلك على ما التمست مع زيادات زدتها في هذا الكتاب»(١).

وأمّا المالقيّ فإنه يذكر في مقدّمة كتابه أنه لمّا «كانت الحروف أكثر دوراً، ومعاني معظمها أشدّ غَمزاً، وتركيب أكثر الكلام عليها، ورجوعه في فوائده إليها، اقتضى ماخطر من النظر أن أبحث على معانيها، وأطالع غرض الواضعين فيها، فوجدت منهم من أغفل بعضها وأهمل، ومن تسامح في الشرح وتسّهل، ومن اختصر منها وأسهب، ومن ركّب البسيط ، وبسّط المركب، ومن شتّت ألفاظها وعدّد، وطال الكلام لغير فائدة وردّد.

فدعاني الغرض الخاطر، والرفيق العابر أن أؤلف فيها كتاباً يشتمل على شرحها وإيضاح ماخفي من برّحها (٢) ليشتفي صدر الناظر فيه على المأمول، و يفيده ــ أن شاء الله ــ إن أخذه بالقبول»(٣).

وأمّا ابن قاسم المراديّ فانه يذكر في مقدّمة كتابه مانصّه: «فإنه لما كان مقاصد كلام العرب على اختلاف صنوفه مبنّياً أكثرها على معاني حروفه، صُرِفَتْ

الهمم إلى تحصيلها، ومعرفة جملتها وتفصيلها، وهي مع قلّتها، وتيسُّر الوقوف على جملتها قد كثر دَوْرُها، وبَعُد غورها، فعزّت على الأذهان معانيها، وأبَتْ الاذعان إلاّ لمَن يعانيها»(٤).

وأمّا ابن هشام فإنه يذكر في مقدمة كتابه: أنه وضع هذا المؤلف مُحْكماً متقناً كشف فيه المعضلات، وبيّن الأغلاط. يقول:

«أستأنفت العمل لا كسلاً ولا متوانياً، ووضعت هذا التصنيف على أحسن إحكام وترصيف، وتتبّعت فيه مقفلات مسائل الإعراب فافتتحتها، ومعضلات يستشكلها الطلاّب فأوضحتها ونقحتها، وأغلاطاً وقعت لجماعة من المعربين وغيرها فنبهتهم عليها، وأصلحتها.

فدونك كتاباً تُشَدّ الرّحال فيما دونه، وتقف عنده فحول الرجال ولا يعدونه، إذ كان الوضع في هذا الغرض لم تسمح قريحة بمثاله، ولم ينسج ناسج على منواله»(٥).

وإذا كانت دراسة الأدوات شغلت أذهان النحويين واللغويين لتحديد معالمها ورسم الخطوط الدقيقة لمعانيها، فإنّ الأداة: «إذْ» نالت نصيباً كبيراً من دراسة النحويّين، لتعددّ دلالتها، واختلاف معانيها، وتنوّع أساليبها.

وهدفي من هذه الدّراسة هو عرض معاني هذه الأداة في ضوء الأساليب العربيّة، وعلى هدْى المعاني النحويّة، ليتبيّن لنا من خلال البحث والدراسة أن نضع أيدينا على أساليبها المتعدّدة وطريقة استعمال كل أسلوب. وهذا من دون شك يساعدنا على أن نقف على أسرار الأساليب التي اشتملت عليها، واستيعاب المعاني التي تعدّدت في مجالها، وبذلك نضع النّقاط على الحروف في قضيّة تحتاج إلى بحث جادّ، لأنها على حد تعبير المرادي: عزّت على الأذهان معانيها، وأبت الإذعانَ إلاّ لمن يُعانيها.